

بنوة التوحيدى الأدبية للجاحظ

بقلم : مارك برجيه

لقد ألف التوحيدى كتابا عنوانه « تقرير الجاحظ » ، وهذا الكتاب هو ما يطرح علينا بصورة تستثير الدهشة ، مسألة البنوة الفكرية لهذا الاديب حيال الجاحظ . ومن المهم أن نلاحظ فى هذا الصدد أنه لا يوجد برأينا ، سواء قبل التوحيدى أو بعده ، كتاب عن الجاحظ يشبه هذا الكتاب .

وهكذا نرى أن التوحيدى الذى تبعث سعة ثقافته (٣) الادبية والفلسفية والعلمية والدينية ، الاعجاب فى نفوسنا ، قد حرص على أن يتخذ لنفسه موقفا علنيا حيال القيمة الفنية (٤) للجاحظ ذلك للكاتب الذى سبقه ، والذى كانت مؤلفاته مما يتداوله الناس فى ذلك الزمن قراءة ونسخا واستشهادا ، فالتوحيدى ، بدلا من أن يسكت عن شهرة أستاذه الجاحظ - وهو على الصعيد الادبى منافس كبير له عمد الى اختيار أنجع الوسائل لدعم

ان مهمة التعريف بالاستاذ وتخليد شهرته تقع على عاتق التلميذ . ولكن بقدر ما يتأخر زمينا نشوء تلك التبعية التى تربط التلميذ بأستاذه ، يكون ذلك دالا على قيمة وأصالة ذاك الذى استطاع بإبداعه أن يفرض على التاريخ الادبى العربى اتجاهها جديدا . وتلك فى الواقع هى الحال بالنسبة لامام انثر العربى فى النصف الاول للقرن الثالث الهجرى ونعنى به الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨ م) وأيضا لذلك النثر الذى لمع اسمه فى النصف الثانى للقرن الرابع الهجرى ونعنى به أبا حيان التوحيدى (٢)

مائة وخمسون سنة على وجه التقريب تفصل بين بداية النضج الادبى لكل من هذين الكاتبين اللذين جمعت بينهما صناعة الكتابة ، وإن اختلف مصيرهما البشرى والفكرى أيما اختلاف .

(١) لقد حصلنا على اذن من ادارة مجلة Arabica لنشر الترجمة العربية لهذه الدراسة التى قمنا بها باللغة الفرنسية : انظر مجلة Arabica المجلد ١٢ العدد ٢ سنة ١٩٦٥ صفحة ١٨٨ - ١٩٥ .

(٢) انظر مجلة Arabica العدد الخاص ببغداد ١٩٦٢ .

Ch. Pellat : La Prose Arabe à Bagdad, pp. 407-418.

انظر خصوصا الصفحة ٤٠٩ - ٤١١ و ٤١٦ و ٤١٨ . يقول المؤلف فى الصفحة ٤١٦ : « ينقل الينا التوحيدى بكل براعة الاحاديث الفلسفية ، ويصور لنا صورا هزلية لاذعة لبعض معاصريه (لاسيما ابن عباد وابن العميد) ويؤلف رسائل تذكرونا بالجاحظ . ولاشك أن التوحيدى هو آخر وأشهر ممثل للنهج النثر الكبير فى القرن الثالث (أى الجاحظ) ، الذى ينتمى اليه التوحيدى ويعلن اعجابه به ، ان نثره الرائعبقى بعيدا عن السجع فى عصر أصبح السجع فيه سائدا على الاوساط الادبية التى كان يحتك بها وكان زينة شبه الزامية فى انشاء الرسائل والدواوين (ص ٤١٦) »

(٣) ان اول شاهد مكتوب على هذه الثقافة الواسعة هو كتابه الضخم « البصائر واللاخار » (٢٠٠٠ ورقة كما يقول التوحيدى نفسه . طبعه احمد أمين ص ١٠ سطر ٦) والذى طبع منه حتى الان جزآن فقط من أصل عشرة أجزاء بطبعتين مختلفتين ، الاولى طبعة احمد أمين واحمد صقر (القاهرة ١٣٧٣/ ١٩٥٢ ، الجزء الاول ب ٢٥٩ ص ٠) والثانية طبعة ابراهيم الكيلانى (دمشق ١٩٦٤ ، وتشمل الجزأين فى مجلد واحد ٥٥٩ ص) . وينتظر أن يظهر قريبا مجلد ثان من طبعة ابراهيم الكيلانى ، الجزين الثالث والرابع .

(٤) ان ياقوت الذى يذكر «تقرير الجاحظ» فى كتابه «الارشاد» يبين أن التوحيدى قد أحصى فى هذا الكتاب مجموعة من الناس اعترفوا بتفوق الجاحظ . انظر الطبعة الثانية لـ D.S. Margoliouth : الارشاد الاديب الى معرفة الاديب ، المعروف بمعجم الادباء ، القاهرة ١٩٢٣ - ١٩٢٥ الجزء الثالث ص ٨٦ سطر ١٣ - ١٥ ، الجزء الخامس ص ٢٨٢ سطر ٦ .

شهرة أستاذاه ، غير عابىء بما يمكن أن يلحق بشهرته من الضيم .

لن يدور فى خلدنا هنا أن نجري موازنة بين التوحيدى والجاحظ على الرغم مما نعتقده من أن مثل هذه الموازنة ستساعد الى حد كبير على تفهم كل من هذين المؤلفين . فذاك عمل يمكن انجازه فيما بعد . ان هدفنا اذن هو الاقتصاد على طرح مشكلة من مشاكل التاريخ الادبى ، فى نفس الحدود التى اختار التوحيدى توضيحها ، دون أن ندعى حلها بصورة نهائية . فهناك من هو أقدر منا على تحديد أثر الجاحظ - على صعيدى الفكر والاسلوب معا - فى الاجيال التى تلتها ، وردود الفعل التى استثارها .

لنمحص على قدر الامكان وبالترتيب الزمنى حكم التوحيدى فى « الجاحظ » . لقد حرصنا فى الواقع قدر المستطاع أن لاندع طى الحفاء أى حكم وألزمنا أنفسنا بالرجوع الى كل آثار التوحيدى . لقد كان مثل هذا العمل مما لا غنى عنه . وفضلا عن ذلك لم يفتنا أن نفرق بين مجرد الاستشهادات من تصانيف الجاحظ - وتلك طريقة ثابتة فى كتب الادب - وبين الاحكام التى قيلت فيه . ومما يزيد من قيمة هذا الرجوع الى كل آثار التوحيدى ، أن نص كتاب « تقرير الجاحظ » (٥) لم يصل إلينا الا على شكل مقتطفات جد مقتضبة ساقها ياقوت فى مواضع مختلفة من كتابه « الارشاد » (٦)

(٥) لدينا بعض الدوافع التى تخولنا الاعتقاد بأن المثلوث على هذا الكتاب الذى ذكره ياقوت (مخطوطة ٦٢٦/ ١٢٢٩) كمرجع معروف فى زمانه ، غير مستحيل ، ذلك أن ياقوت كان بين يديه نسخة عن الكتاب مكتوبة بخط التوحيدى نفسه (ارشاد ، الجزء الخامس ، ص ٢٨٢ سطر ٥ - ٦) . والواقع أن المكتبة السليمانية فى استمبول تملك كتابا اسمه «مجموع أسد افندى» يحوى عدة مؤلفات للتوحيدى وكتب فى أيام ياقوت ويحمل الرقم ٣٥٤٢ .

ارجع الى الدراسة الوافية التى خصصت لهذا الكتاب (ص ١٧ - ٢٤) فى مجلة B.E.O. de Damas الجزء

١٦ عام ١٩٥٨ - ١٩٦٠ ، مارك برجيه
Une anthologie sur l'amitié d'Abu Hayyan al-Tawhidi.

ص ١٥ - ٦٠ .

(٦) يؤكد بعض الكتاب الاقدمين وجود كتاب تقرير الجاحظ . ونورد ذكرهم فيما يلى :

- ١ - ياقوت : «كتاب الارشاد (معجم الادباء)» المجلد الاول الصفحة ١٢٤ السطر ٩ ، و ١٤١ السطر ١١ ، المجلد الثالث الصفحة ٨٦ السطر ١٤ ، المجلد الخامس الصفحة ٢٨٢ السطر ٦ ، و ٢٨٢ السطر ١ ، المجلد الرابع الصفحة ٥٨ السطر ١٤ ، و ٦٩ السطر ٤ .
- ٢ - الذهبى : «سير اعلام النبلاء» ، المخطوط رقم ٢٩١٠

ولما كان همنا هو دوما اكتناه فكر التوحيدى فى تطوره ، فقد اعتمدنا على بعض المعطيات التاريخية المستنبطة من آثار المؤلف ، بغية اثبات الترتيب الزمنى التالى ، للآثار المتضمنة أحكاما فى الجاحظ .

١ - البصائر والذخائر :

الذى قضى التوحيدى فى تصنيفه زمنا امتد من سنة ٣٥٠ / ثلاث مئة وخمسين حتى سنة ٣٦٥ (٧) ثلاث مئة وخمس وستين .

٢ - تقرير الجاحظ :

ونستطيع على سبيل الافتراض فقط ، أن نرد تاريخ تأليف هذا الكتاب الى الزمن الذى فيه صنف التوحيدى كتاب « البصائر والذخائر » ، علما بأن ثمة مشكلة فى بعض المواضع المتناولة فى كل من هذين الكتابين .

٣ - أخلاق الصاحب وابن العميد (٨) :

وهو كتاب جرى تصنيفه بعد سنة ٣٧٠ / ثلاث مئة وسبعين ، وهو تاريخ القطيعة النهائية بين

من مكتبة أحمد فى استمبول ، المجلد الحادى عشر ، الورقة ٢٦ ١ .

٣ - الكتبى : «عيون التواريخ» ، المخطوط رقم ٣٤١٣ من المكتبة الظاهرية فى دمشق ، المجلد الثانى عشر ، الورقة ٢١٧ - ب .

٤ - المسقلانى : «لسان الميزان» طبعة حيداباد ١٣٢٩ -

١٣٣١ المجلد السادس ، صفحة ٣٦٩ - ٣٧٢ .

ولا يوجد فى أيامنا مخطوط معروف لكتاب « تقرير الجاحظ » . وأن المقتطفات لدينا منه مستخرجه فقط من كتاب الارشاد أو الكتب الآتية الذكر .

(٧) انظر طبعة أحمد أمين الجزء الاول ص ٤ سطر ٨ - ٩ ، حيث نجد ذكرا واضحا وكاملا لتاريخ الكتاب ، الامر الذى لانجده فى طبعة ابراهيم الكيلانى (ص ٣ سطر ٤) ونجد هذه الدلالة الواضحة (منذ عام خمسين وثلاث مئة الى سنة خمس وستين وثلاث مئة) فى مخطوط «فتح» فى استمبول تحت رقم ٣٦٩٥ فى الصفحة الثانية والسطر الثالث ومؤرخ بتاريخ ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م . أما مخطوط كمبريدج الحديث العهد ١١١٧ هـ / ١٧٠٥ م والذى يحمل رقم ١٣٩٢ فقد أهمل لاسباب خفية القسم الثانى من التاريخ اى : « الى سنة »

(٨) لدينا طبعان مأخوذتان عن كتاب «مجموع أسد افندى» الانف الذكر ، الاولى لابراهيم كيلانى ، دمشق ١٩٦١ فى ٤٠٠ ص . تحت عنوان « مثالب الوزيرين » والثانية لاحمد الطنجى ، دمشق منشورات المجمع العلمى =

التوحيدى وبين صاحب بن عباد . وقد ورد ذكر هذا الكتاب فى (الامتاع) .

٤ - كتاب الامتاع والمؤانسة :

وقد جرى تصنيفه حوالى سنة ٣٩٤ (٩) ثلاث مئة وأربع وتسعين .

ومن الاهمية بمكان أن نلاحظ أن آثار التوحيدى الأخرى تشتمل على بعض استشهادات من كلام الجاحظ ولكنها لا تنطوى على أحكام تقييمية حول شخصية الجاحظ كأديب . ولعل من المفيد من ناحية أخرى أن نعرف بمزيد من التأكيد الآونة التى فيها ألف التوحيدى كتابه (تقريظ الجاحظ) بحيث يتسنى لنا أن نقدر بشكل مضبوط مكان هذا المصنف فى تطوره الفكرى . فإذا كان تأليف هذا التقريظ فى الآونة التى جرى فيها تأليف كتاب (البصائر) يكون ذلك قد وافق تلك الحقبة من الزمن التى زخرت بالنسبة للتوحيدى بمطالعات كثيرة ، وكانت من حيث الإبداع أقل حظا من الحقب التى تلتها ، وإنشئ فيها على نحو تلقائى إعجاب التوحيدى بالتلميذ بأستاذه الجاحظ . وإذا كان هذا (التقريظ) قد جاء متأخرا عن كتاب (البصائر) فإنه يكون دالا على اعتراف أكثر نضجا وأشد رسوخا بتفوق الجاحظ ، أما الآن فلسنا مع الأسف فى حال تمكننا من الإجابة بتأكد على هذه التساؤلات .

بعد هذه التوضيحات القليلة لمشكلة رئيسية ألا وهى مشكلة التسلسل الزمنى لآثار التوحيدى من المستحسن أن تستعرض أقوال هذا المؤلف فى الجاحظ .

يسرد التوحيدى فى مقدمته لكتاب (البصائر) أسماء المؤلفين وعناوين الكتب التى أفاد منها فى تأليف هذا الكتاب . فهو يقول : « جمعت ذلك كله فى هذه المدة الطويلة ، من كتب شتى ، ككتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وكتبه هـى الدر

= التى ظهرت منذ زمن قصير تحت عنوان «أخلاق الوزيرين» صاحب وابن العميد - وهو عنوان المخطوط المذكور - فى ٦٦٤ م وسبق ظهور هذه الطبعة مقالة صغيرة (ص ٢٢٢ - ٢٣٠) فى مجلة المجموع العلمى العربى (كانون الاول ١٩٦٥) هى بمثابة مقدمة لحياة التوحيدى ومؤلفاته . ووضع هذه المقالة أحمد الجندي تحت عنوان : «أبوحيان التوحيدى» .

(٩) طبعة أحمد أمين وأحمد الزين ، فى ثلاثة أجزاء : الطبعة الثانية ١٩٥٣ .

النثر واللؤلؤ المطير ، وكلامه الحمر الصرف ، والسحر الحلال (١٠) .

ومن بواعث الدهشة أن نرى التوحيدى فى كتاب له ماله من أهمية ككتاب (البصائر) ذى المصادر المتعددة ، يولى المكانة الأولى للجاحظ . وهو فضلا عن ذلك يذكر « كتب الجاحظ » ، تاركا المجال للافتراض بأن تلك الكتب على تنوعها معروفة لديه ولدى الجمهور المثقف الذى يؤلف له ، وأنه لا مجال لتقديم كتاب منها على آخر (١١) أن قيمة هذه الملاحظات تتجلى على آتم وجه إذا راعينا من ناحية أخرى كون التوحيدى فى سرده للجاحظ قبل ثمانية من مؤلفى القرن الثالث لم يتبع ترتيبا زمنيا دقيقا ، وأنه علاوة على ذلك لم يذكر لأولئك المؤلفين سوى كتاب واحد ، دون أن يشفع ذلك بحكم تقييمى .

ذلك فيما نعلم هو الحكم الشخصى الوحيد (١٢)

(١٠) أن هذه الصفة «السحر الحلال» قد وجهها التوحيدى الى ابن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٦ هـ أو ٩٠٨ م) فى كتابه «رسالة فى العلوم» . انظر B.E.O. de Damas جزء ١٨ سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤ . ص ٢٧٠ ، ٢٨ .
وأياضا M. Bergé : *Empirisme sur les Sciences d'Abu Hayyan al-Tawhidi* . (ص ٢٤١ - ٢٣٠) .

(١١) مما يؤسف له أن التوحيدى لم يضع لنا لائحة مفصلة عن أسماء كتب الجاحظ الكثيرة ، كما أنه لم يضع لائحة أخرى بأهم كتبه .

(١٢) نجد فى الجزء الاول من البصائر ، طبعة أحمد أمين ، الصفحة ١٩٧ السطر ٣ الى الصفحة ١٩٨ السطر ٦ (طبعة الكيلانى : الصفحة ٢٣١ السطر ٤ الى ٢٢٢ السطر ١٢ حكما مهما عن الجاحظ ، به أنه يرجع الى ثابت بن قرة . (المتوفى سنة ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م) . ويشمل هذا الحكم المعنى والمبنى . أما عن المبنى فنلاحظ الصفات التى اكدها التوحيدى نفسه فى تعريفه للبلاغة : أى سلاسة الماء والبعد عن التكلف (انظر مارك برجييه فى المرجع الانف الذكر صفحة ٢٦٩ ، ٢٧ و ٢٨) . ويضيف التوحيدى صفات أخرى منها : قلة الصنعة ، رقة الهواء ، حلاوة الناطل (الخمر) واللفظ الفخم . أما بخصوص المعنى فيذكر : المعنى الجيد ، والهزل ، والجدة (انظر : أخلاق الوزيرين صاحب بن عباد وابن العميد ، طبعة الطنجي الصفحة ٤٤٧ السطر ٥) . ونجد حكما آخر مفصلا لثابت بن قرة أيضا فى كتاب تقريظ الجاحظ الذى ذكره ياقوت (الجزء السادس من الإرشاد الصفحة ٧٠ السطر ١٥) . وفى هذا الحكم بعد ثابت بن قرة الجاحظ احدى الشخصيات المرموقة مع عمر بن الخطاب والحسن البصرى الذين برهنوا على «تفوق أمة محمد العربى على من تقدمه من الأمم» (البصائر طبعة الكيلانى ، الصفحة ٢٢٩ السطر ١ - ٢ ، طبعة أحمد أمين ، الصفحة ١٩٥ السطر ١ - ٢) .

الذى فى وسعنا أن نستخلصه من النصوص المنشورة لكتاب « البصائر » : وهو وحده يطلعنا توا على المكانة المرموقة التى يحتلها الجاحظ فى ثقافة التوحيدى وعلى الاثر الذى ما برح يحدثه فى الاوساط الادبية آنذاك .

لا يعنينا ، ونحن نراجع الآن كتاب « تقرّيز الجاحظ » أن نستقصى ما سرده ياقوت فى كتابه الارشاد من شواهد استخلصها من ذلك الكتاب (١٣) . ان ما يعنينا الآن منه هو تلك المقاطع التى يدلى فيها التوحيدى برأى شخصى فى الجاحظ . ولا بد لنا من الاعتراف أن النتائج التى توصلنا اليها فى هذا المجال ضئيلة جدا . ولربما كان ياقوت قد تعمد اغفال ذكر استطرادات هامة أو أنه لم ير فى هذا الكتاب الا ما هو معهود فى النمط الكلاسيكى من كتب الادب ، الذى تتوالى منه الشواهد بوفرة دون أى ترتيب منطقي الا أن يكون هذا الترتيب ظاهريا جدا . على أنه لا مجال الآن للججابة عن هذه الاسئلة .

فى ملحوظة عن أحمد بن داود أبى حنيفة الدينورى ، ينقل لنا ياقوت ، وهو يسرد بدقة تقرّيز الجاحظ ، حكما شخصيا للتوحيدى حول الجاحظ : « قال أبو حيان فى كتاب تقرّيز الجاحظ ومن خطه الذى لا أرتاب فيه نقلت : . . . والذى أقبوه واعتقده وأخذ به . . . أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقرّيزهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا الى أن يأذن الله بزوالها لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم : أحدهم هذا الشيخ الذى أنشأنا له هذه الرسالة وبسببه جشمتنا هذه الكلفة ، أغنى أبا عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ) ، والثانى أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخى (١٤) ولو تناصرت إلينا

(١٣) سننشر هذه الدراسة فى حينها كى نتمكن من تكوين فكرة دقيقة حول نص «تقرّيز الجاحظ» .

(١٤) ان هذا المديح الذى خصه التوحيدى للبلخى يبين لنا ثقافة التوحيدى واطلاعه . انظر : E. 12, I. S. M. Dunlop art. *Al-Balhi*. pp. 1033-4.

وفى هذا الصدد نذكر أن التوحيدى يستشهد أكثر من مرتين فى مؤلفاته بكتاب «أقسام العلوم» للبلخى «انظر المقامات» المقايسة التاسعة صفحة ١٤٨ ، «تقرّيز الجاحظ» فيارشاد ياقوت : الجزء الاول الصفحة ١٢٥ السطر ١١ . وكذلك ذكر التوحيدى فى «رسالة فى العلوم» كتاب «أقسام العلوم» بدون أن يذكر مؤلفه .

أخبارهما لكننا نحب أن نفرّد لكل واحد منهما تقرّيزا مقصورا عليه وكتابا منسوبا إليه كما كما فعلت بأبى عثمان الجاحظ (١٥) .

علينا إذن أن نعترف مرة أخرى بالمكانة الفذة التى يحتلها شيخنا الجاحظ هذا فى نفس التوحيدى المعجب به أيما إعجاب ، سواء أتعلق الامر بصفاته الاخلاقية بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ، أم بمزايه الفكرية التى برزت من خلال كتاباته . ولئن كان ياقوت لم ير من المناسب أو أنه لم يكن فى وسعه الاثيان بشواهد من كتاب « تقرّيز الجاحظ » ، ترينا دواعى هذا الإعجاب فان علينا أن نعلق على هذه الشهادة ، التى لا يتطرق الشك الى مافيه من اخلاص وعفوية ، كل ما تستحقه من أهمية . فضلا عن ذلك ان مثل هذا الحكم يظل محتفظا بقيمته من أجل اعداد تاريخ للأدب العربى يبدو أن التوحيدى أراد الاسهام فيه .

وفى كتاب (أخلاق الصاحب وابن العميد ، لم يفت التوحيدى ، فى معرض ذكره لأحد كتب الجاحظ وهو « الرسالة الطويلة فى ذم أخلاق محمد بن الجهم البرمكى (١٦) » أن يمتدح أستاذه الجاحظ : « وهو وحيد الدنيا » ، وفى رأى التوحيدى أن الجاحظ يتجلى فى هذا الكتاب خطيبا مصقعا) .

ان كتاب الامتاع والمؤانسة هو الكتاب الثانى للتوحيدى الذى ينطوى فى مقدمته على شهادة بما

B.E.O. Damas, tome XVIII. (انظر

M. Bergé, op. cit., p. 258. & 7 rote 1

ويمكننا الآن الاعتقاد بأن هذا الكتاب المغفل على الأرجح كتاب البلخى . وتكميلا لابحاثنا الاولى فى المقالة الأنفة الذكر ، يجب الاضافة بأن «ذيل كشف الظنون» لحاجى خليفة (ص ١١٢) ينسب هذا المؤلف الى البلخى . كما وأن ابن النديم فى الفهرست (طبعة القاهرة عام ١٣٤٨ الصفحة ١٩٨) ينسب كتاب «أقسام العلوم» (بدل العلوم) للبلخى . وكذلك بروكلمان فى GAL, SI, 408.

(١٥) ارشاد ، الجزء الاول ، الصفحة ١٢٤ السطر

١٦ الى الصفحة ١٢٥ السطر ٢ و ٩ - ١٠ و ١٥ - ١٦

(١٦) انظر

G. Lecompte, dans *Arabica*, tome V, fasc. 3 (Sept. 1958), pp. 263-271 : *Muhammad b. al-Gahn al-Barmaki, gouverneur philosophe, jugé par Ibn Qutayba*.

ان ذكر التوحيدى لمثل هذه المؤلفات مبرر لانه ألف هو أيضا كتابا هجائية . فكتب «لماذا يضع الناس المناقب والمثالب» . انظر «أخلاق الوزيرين» ، طبعة الكيلانى الصفحة ٣٢ السطر ١٥ ، وطبعة الطنجى ، الصفحة ٤٤ السطر ٧ .

خلفته كتب الجاحظ من أثر في نفس التوحيدى .
وفى الحقيقة ، أن أبا الوفاء المهندس الذى شمل
التوحيدى برعايته ، يذكر أبا حيان بأنه قد أتاح
له دخول بلاط الوزير أبى عبد الله العارضى .

يقول أبو الوفاء « وفعلت ذلك كله حتى
استكتبك (كتاب الحيوان) لأبى عثمان الجاحظ
ل عنايتك به ، وتوفرك على تصحيحه (١٧) » .

فيكون التوحيدى والحالة هذه فى عداد من
وقفوا ، أو كما يقال فى أيامنا هذه ، من تخصصوا
بكتب الجاحظ ، وبكتاب الحيوان بصورة خاصة .
فما كان صحيحا اذن بالنسبة للزمن الذى صنف
فيه التوحيدى كتاب البصائر ينطبق أيضا على
الزمن الذى صنف فيه كتاب الامتاع .

فى الليلة الرابعة من كتاب الامتاع يزودنا
التوحيدى بكثير من المعلومات عن الوزيرين
البويهيين ، ابن العميد وابن عباد . فهو حين أراد
أن يدحض ادعاءات ابن العميد الأدبية ، يقول :
« أول من أفسد الكلام أبو الفضل ، لانه تخيل
مذهب الجاحظ وظن أنه ان تبعه لحقه وان تلاه
أدركه ، فوقع بعيدا من الجاحظ ، قريبا من
نفسه ، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ
مدبر بأشياء لا تلتقى عند كل انسان ، ولا تجتمع
فى صدر كل أحد : بانطباع والمنشأ والعلم
والاصول والعادة والعمر والفراغ والعشق
والمنافسة والبلوغ (١٨) » .

(١٧) الامتاع : الجزء الاول الصفحة ٥ السطر

٢ - ٣

(١٨) الامتاع : الجزء الاول ، الصفحة ٦٦ السطر

٣ - ٨

فالتوحيدى اذن يعترف بأن للجاحظ مذهبه ،
لا بل ومدرسته الخاصة به ، وهو اذ يقدم لنا
ذلك المذهب هل أنه شئ نادر وبعيد المثال ، انما
يضع نفسه بشكل سافر ، موضع التبعية لامامه .

ومجال القول فى التعريف الذى يقدمه
التوحيدى للطريقة الجاحظية متسع . والواقع أن
كل كلمة استعملها التوحيدى فى هذا التعريف
تستأهل تعليقا من شأنه أن يميظ لنا اللثام عن
الجاحظ من مختلف جوانبه ، ولكنه يكشف فى
الوقت نفسه عن مزاج التوحيدى . على أن الشئ
الوحيد الذى يهمنى الآن هو ما يشهد ببؤة
التوحيدى للجاحظ . ولئن يكن هذا الدليل قد
ورد ضمن اطار جدلى ، فانه يظل أقوى كل
ما استطعنا جمعه .

ولما كان الهدف الذى يستأثر باهتمامنا هو
أن نقوم باستقصاء النصوص التوحيدية الدالة
على بؤة أبى حيان للجاحظ من الناحية الفكرية ،
فمن المحتمل أن نعجب حين نفاجا بضالة تلك
النصوص . على أنه ينبغي لنا الاعتراف بأن
تماسك اعترافات التوحيدى وتلقائيتها من شأنه
أن يعوض الى حد بعيد عن هذا النقص . (١٩) كما
اننا نرى من جهة أخرى أن ما نقوم به من هذا
الاحصاء لآراء التوحيدى فى الجاحظ ليس سوى
نقطة انطلاق . وفى الحقيقة علينا أن نصرف
جهدنا بعد الآن الى دراسة آثار التوحيدى لكى
نكتشف فيها الآثار الملموسة لفكر استاذ الجاحظ
وأسلوبه .

(١٩) لاشك أن مقارنة النقد الادبى عند التوحيدى

بمن سبقه من الكتاب ، لعملية فى غاية الاهمية .